# أثر التقوى في طلب العلم

## (الحلقة الثانية)

أ.د.محمود توفيق محمد سعد(*)

في الحلقة السابقة بينت مفهوم (التقوى) التي يحسن بنا طلاب العلم أن يكون لنا منها النصيب الأوفى في طلبنا العلم الصحيح الصريح الذي نخرج به أنفسنا والناس من الظلمات إلى النور بلسان حالنا ولسان مقالنا.

وفي هذه الحلقة أنظر في أثر هذه التقوى في طلب العلم.

ومن البين أن رأس العلم المخرج من الظلمات إلى النور هو العلم بكتاب الله -سبحانه وتعالى- وهو إذا ما أنبأنا عن نفسه وصفاته في طليعة سورة (أم الكتاب) فقال -عز وجل-: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ① ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (الفاتحة: ١- ٤)[١]، فذلك من فيض رحمته بنا من أننا لا نعرف شأنه وقدره وما يجب له -جل جلاله- بعقولنا، مهما بلغت من العلم واللقانة، فتولى ذلك عنا، كيما نفهم كلامه في نور هذه الصفات الجليلة، فنستبصر في كل آية من كتابه استحقاقه الحمد لذاته، ولربوبيته العالمين -كل العالمين- وأن كل ما يأتينا منه علينا أن نوقن بأنه -سبحانه وبحمده- يربينا به إن نحن رضينا بما قدره، وأن نوقن أن ما يأتينا منه سواء أَنِسَتْ به نفوسنا أم لم تأنس به، إنما هو رحمةٌ منه تعالى.

«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[٢]، وأنه يجزينا خيرًا يوم الدين (الحساب) الذي هو مالكه إن رضينا وخشعنا، وأنه يجزي من لم يرض ما يستحقه، فهو العزيز الحكيم، إذا ما كان ذلك فإنه في فاتحة سورة (البقرة) أنبأنا بشأن الصراط المستقيم الذي طلبناه في (سورة الفاتحة): ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فقال لنا: الصراط المستقيم الذي طلبتم أن أهديكم إليه هو ذلك الكتاب: (القرآن)، أنبأنا بشأن هذا الكتاب في ثلاث جمل متوالية: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢)[٣]:

---

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

(١) كل حديث الله- تعالى- عن نفسِه في كتابه يرجع إلى حديثِه عن نفسِه في فاتحة سورة (أم الكتاب) فهو ضابط لمسالك فهم أسماء الله -تعالى- وصفاته وأفعاله، فكل تأويل لصفة من صفاته تتعاند مع ما ذكره -سبحانه وتعالى- عن نفسِه في أول هذه السورة (الأم) تأويل مردود.

(٢) أخرجه مسلم، برقم: (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) نبأُ الله -تعالى- عن كتابه في فاتحة البقرة هو جمعة كل ما جاء في الذكر الحكيم حديثًا عن القرآن، فما من خبر عنه بعد إلا ومرجعه إلى هذه الجمل الثلاثة.



الأولى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ كما دل نظمها مبينةٌ عن علو شأنه وكماله فيما أنزل له.

الثانية: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ كما دل نظمها مبينةٌ عن أن ذلك الكتاب الصراط المستقيم ليس فيه ما يمكن أن يكون سببًا لأن يرتاب فيه عاقل منصف مستبصرٌ متدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء:٨٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢).

الثالثة: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ كما دل نظمها مبينةٌ عمن يكون هذا الكتاب هدًى له، هداية إعانة وتوفيق وتسديد، فلذلك الكتاب هدايتان:

الأولى: هداية إبانة، وهذه للناس أجمعين ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، والأخرى: هداية إعانة وتوفيق وتسديد ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢).

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ (النمل: ١ – ٣).

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

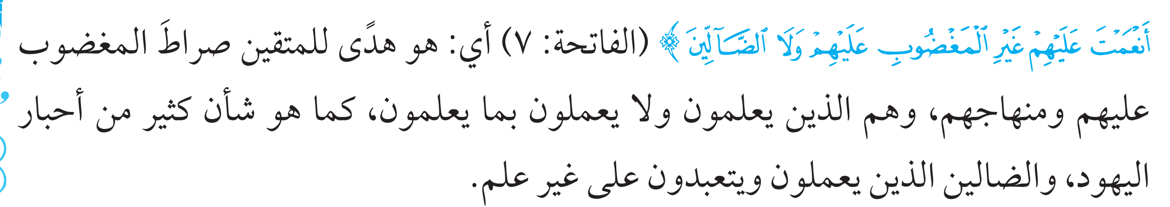
(لقمان: ١ – ٥).

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨) جعله في هذه الآية للناس بيانًا، أما المتقون فهو لهم هدًى وموعظة.

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ (فصلت:٤٤)، جعله في هذه الآية للذين آمنوا هدًى وشفاءً بينما هو على الذين لا يؤمنون عمًى.

دل ذلك على أن القرآن –وهو أساس كل علم نطلبه لنخرج أنفسنا والناس أجمعين من الظلمات إلى النور– لا يكون هاديًا هداية إبانة وإعانة معًا إلا للمتقين.

وقوله في أول موضع جاء فيه القول في شأن القرآن: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) الأَوْلى أن نفهم قوله تعالى: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ منظورًا فيه إلى ما في آخر سورة الفاتحة، فهو –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ



﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) أي: هو هدًى للمتقين صراطَ المغضوب عليهم ومنهاجهم، وهم الذين يعلمون ولا يعملون بما يعلمون، كما هو شأن كثير من أحبار اليهود، والضالين الذين يعملون ويتعبدون على غير علم.

أما صراط ومنهاج الذين أنعم الله -تعالى- عليهم فهو صراط الذين يعلمون الحق المبين ويعملون به مخلصين.

هذا يهديك إلى أنه لا يكون طلبنا العلم الصحيح الصريح الذي نخرج به أنفسنا والناس أجمعين من الظلمات إلى النور إلا إذا كنا على صراط الذين يعلمون الحق المبين علمًا قويمًا ويعملون به عملًا صالحًا مصلحًا، فمن عمل بما علم من الحق مخلصًا متقنًا علَّمه الله -تعالى- ما لم يكن يعلم.